SEBHA UNIVERSITY JOURNAL OF HUMAN SCIENCES VOL.20 NO. 3 2021
DOI: 10.51984/JOHS.V20I3.1520

جامعة سبها للعلوم الإنسانية مجلة
Sebha University Journal of Human Sciences

Journal homepage: https://sebhau.edu.ly/journal/index.php/johs

محطات من أدب الرحلة في المجال الصحراوي رحلة الوارجلاني أنموذجاً

رجعة فضيل الغناي

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة سبها، ليبيا

الملخص

تتناول الورقة البحثية محطات من أدب الرحلة في المجال الصحراوي، من خلال رحلة الوراجلاني إلي الحج عبر إقليم فزان، والتي جرت أحداثها إبان النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وتسعي الورقة إلي دراسة نوع جديد من أدب الرحلة في شكله الشعري، والذي يختلف في شكله وأسلوب كتابته عن نصوص الرحلة المعهودة من قبل، وبناء مدونها لنص رحلي تتوفر فيه جميع عناصر أدب الرحلة، وبما أن رحلة الوارجلاني تلك نموذجاً لمثل هذا النوع، فقد تتبعت الدراسة خط سيرها وطريقة تدوينها، مبرزة لبعض خصائص كتابتها، والمصاعب والأخطار التي واجهت الحجيج الذين ضمهم الركب.

الكلمات المفتاحية:

أدب الرحلة
الوارجلاني
طريق الحج
الركب

Aspects Of Travel Literature In The Desert Domain Alwargilani Trip As A Model

Rajah Fadheel Alghanay

Department of History, Faculty of Arts, Sebha University, Libya

A B S T R A C T

This research paper deals with aspects of travel writing in desert area through Alwarjalany pilgrimage a cross Fezzan region, which took place during the second half of the 6th century migration/ the 12th century. The paper also seeks to study a new type of travel writing which differs from typical travel texts in terms of its form and style of writing. Additionally, the blogger of this travel had built a travel text in which all the elements of travel writing exist. Since Alwarjalany trip is a model of this type, the current study has traced its route and the way it had been recorded, by highlighting some of its writing features as well as the challenges and the dangers which encountered pilgrims who had joined the trip.

Keywords:

travel literature
Alwargilani
Hajj Road
Al-Rukab

المقدمة

يعد أدب الرحلة جزءاً من التراث الشعبي العربي والذي غالباً ما أغفلته المدونات التاريخية الرسمية ويضرب هذا الأدب بجذوره في القدم؛ فقد عرفته أغلب الأمم، وهو مزيج من الجغرافيا والانثراغرافية(*)، ونقل الرحالة من خلاله ما شاهده بدقة مصوراً المواقع، وكل ما يستحق التسجيل بمفردات واضحة وأرخ من خلالها للمجتمعات التي زارها وعاداتها وتقاليدها مؤسساً بذلك لعلم الجغرافيا، وإذا ما تتبعنا مسار أدب الرحلة نجده بدأ في القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي مع اليعقوبي صاحب مؤلف البلدان، والذي قام بعدة رحلات من بينها وصوله الهند، إلى جانب رحالين آخرين من بينهم موسى بن المنجم، سلام الترجمان، وابن خردادبة، وابن رسته، وابن الفقيه .....[1].وإذا ما انتقلنا للقرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي فأننا نسجل ثلاث رحلات بارزة، أولها رحلة المسعودي، التي وصفها في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر. وشهدت القرون الإسلامية في نفس الفترة نماذج من الرحلات الجغرافية والتاريخية، والتي سجل بعضها في شكل عناوين برحلات أصحابها من بينها رحلة الصيرفي(ت 368 هـ) إلى المحيط الهندي، ورحلة البيروني (440 هـ) والمعروفة بتحقيق ما للهند من مقولة

*Corresponding author:
E-mail addresses: fatmaali1266@yahoo.com

Article History : Received 20 August 2020 - Received in revised form 13 October 2020 - Accepted 20 December 2020

مقبولة في العقل أو مرذولة.

وتوالت الرحلات بعد ذلك في جميع الاتجاهات، وتنوعت بتنوع الأهداف والمقاصد؛ فمنها من كان في طلب العلم ومقابلة العلماء والفقهاء ومحاورتهم، والاستفادة منهم، ومنها من قرنها بالحج وهناك من جعلها للحج، ولكن ذلك لم يمنعه هو الآخر من الانضمام لحلقات الوعظ، وحضور مجالس العلم، وظهرت أيضاً رحلات إدارية وتسمى برحلة السفارة، وهي رحلة رسمية يقوم بها الرحالة بطلب من الحاكم لقضاء حاجة تتعلق بشأن البلاد، كما تخص الحاكم نفسه، بل أن هذا النوع من الرحلات قد يكون بهدف التجسس والاطلاع[2]، إلا أن بعض تلك الرحلات لا نقول أنه انعدمت حولها الدراسات؛ بل قلّت مع تميز من تناولها بالاختصار والشح في المعلومات وكذلك في تحليل بعض أحداثها، خاصة ذلك النوع من الرحلات التي قدّمها أصحابها في قالب شعري من بينها رحلة الوارجلاني، ولا يشترط أن تكون الرحلة نثراً، المهم أنها تؤدى غرض وخصائص فن الرحلة بوصف المكان والزمان، وما تضمنته من قصص، ومغامرات متنوعة، مع وصف لمراحل الرحلة وذكر المصاعب التي اعترضت صاحبها، وإبرازه لبعض العادات الاجتماعية السائدة عند سكان المناطق التي وصلها، وبراعة الوارجلاني من خلال رحلته تكمن في استحضار جميع ملامح أدب الرحلة في قالب شعري، وهي تجربة ذاتية انفرد بها عن غيره وخرج عن المألوف، واختار أن يدون تجربته شعراً لا نثراً، وهذا يعني خصوصية المتن، وأن فيه تجديد غير مألوف في أدب الرحلة، وهي بذلك رحلة تختلف من حيث الشكل والأسلوب عن نصوص الرحلات المتوفرة في الخزانات العربية، والتي يغلب عليها الطابع النثري، وربما ينم ذلك عن تكوينه الفكري وثقافته، وأنه كان شاعراً استطاع أن يجمع بين جمالية الشعر وأدب الرحلة، وبهذا يمكن أن تصاغ الرحلة شعراً على قلة على أن تستوعب الأساليب المباشرة، وغير المباشرة في تنوع كبير.

ويطرح نص الوارجلاني كثيراً من التساؤلات من بينها:

من هو الوارجلاني؟ وماهي دوافع رحلته؟ وما هو الطريق الذي سلكه في رحلته؟ وما الدور الذي يمكن أن تقدمه رحلة الوارجلاني في كتابة التاريخ المحلي لفزان؟ وما هي خصائص كتابة الرحلة عند الوارجلاني؟ هل فيها شيء من التجديد؟ أم أنها كغيرها من الرحلات عرفت متاهة التكرار والتملق للساسة؟ وكيف استطاع المؤلف بناء نص رحلي تتوفر فيه جميع عناصر أدب الرحلة؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة وقبل تناول جزئيات الرحلة نجد أنفسنا بحاجة لتحديد المجال الصحراوي الذي تتناوله هذه الدراسة بين طياتها، كونه شكّل معبراً برياً رئيساً في طريق الرحلة، بالإضافة إلى إعطاء لمحة مبسطة عن الوضع السياسي القائم بالإقليم.

المجال الصحراوي

نقصد بالمجال الصحراوي في هذه الدراسة هو إقليم فزان، والذي تشعبت الآراء واختلفت حول ضبط حدوده وحول من يطلق عليه الاسم، فنجد فزان عند اليعقوبي [3] (ت292هـ/904م)، هي جنس وليس أرض ووصفها بأنها بلد واسع ومدينة عظيمة، في حين أطلق البكري(ت 487 هـ/1094 م) التسمية على بعض ساكنة مناطقه، وعده مع الإدريسي(ت560هـ/1164م)،إقليماً مترامي الأطراف يمتد من ودّان حتى بلاد السودان[4]، وكان ياقوت الحموي(ت 626هـ/1228م) أكثر تحديداً لإقليم فزان؛ إذ عدّ فزان ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس وزويلة قصبتها، وأنها سميت بفزان بن حام بن نوح[5].

وما يعنينا في هذا المجال هو المجال الذي فرض بنو خطاب -أصحاب السيادة على الإقليم-سلطتهم عليه إبّان فترة الدراسة فيما يعرف بإقليم فزان والممتد من ودّان حتى حدود بلاد السودان، والذي يمثل إقليماً طبيعياً صحراوياً، على الرغم من أن تلك الحدود غير ثابتة ومتحركة حسب الظروف السياسية والاقتصادية؛ إذ مر الإقليم بتغيرات أسهمت في اتساع وانكماش مساحته حسب تلك الظروف؛ فنجد أن ودّان تارة تتبع إقليم طرابلس، وتارة تتبع إقليم برقة[6]، وتارة تابعة لسرت[7] الواقعة ضمن إقليم طرابلس.

الوضع السياسي بإقليم فزان خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

جرت أحداث الرحلة موضوع الدراسة إبّان النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي فكان لزاماً علينا تتبع الوضع السياسي القائم بإقليم فزان خلال تلك الفترة، والذي نجد بنو خطاب على رأس السلطة فيه، ومؤسس الأسرة هو عبد الله بن خطاب الهواري[8]، وكان مركز حكمهم مدينة زويلة، وقد وصلت هذه الأسرة إلى حكم زويلة سنة 306-568 هـ/918-1172 م، وكانوا مهابي الجانب في أدني البلاد وأقصاها[9]، وهو ما جعلهم يحكمون سيطرتهم حتى مدينة ودّان[10]، ونعمت فزان في ظلهم بالأمن وازدهرت الحياة الاقتصادية لا سيما التجارة[11].

واستمر الحكم في عائلة بني الخطاب وأبناء عمومتهم على الرغم من افتقارنا إلى الكيفية التي يحتكم إليها بنو الخطاب في إدارة شؤون حكمهم، إلا أننا نعتقد أنهم كانوا يحتكمون إلى العرف، ومساندة الأعيان والفقهاء لهم، وكان الحكم فيها بمقتضى الشريعة الإسلامية، على اعتبار أن أهلها مسلمون[12].

بعد أن أعطينا لمحة عن المجال لإقليم فزان والوضع السياسي القائم فيه ننتقل إلى تناول مجريات الرحلة.

صاحب الرحلة:

هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني ولد بسدراته من بلاد وارجلان[13]، لم تسعفنا رحلته ولا المصادر التي ترجمت له عن تاريخ ميلاده، ولكن تصنيف الدرجيني له في طبقات المشائخ ضمن الطبقة الثانية عشرة(550-600 هـ)[14]، يجعلنا نرجح أن سنة ميلاده على الأقل سنة 500 هـ أو بعدها بقليل، كما أن رغبته الجامعة في لقاء الزمخشري صاحب الكشاف المتوفى سنة 538 هـ[15]، تؤكد ما ذهبنا إليه بشأن تاريخ ميلاده.

اتجه الوارجلاني منذ صغره لطلب العلم، وأخذ مبادئ علومه الأولى على يد الشيخ سليمان بن أيوب ابن إسماعيل المتوفى سنة 524 هـ[16]، وهذا تأكيد آخر على أن تاريخ ميلاده في حدود سنة 500 هـ، أو بعدها بقليل واعترافاً منه بفضل شيخه سليمان بن أيوب رثاه بعد وفاته، وعاصر الشيخ أبا عمرو عثمان بن خليفة السوفي المرغني أحد علماء الإباضية(*). ولا نعلم عما إذا اشتغل الوارجلاني بالتدريس، إلا أن إحدى المستشرقات[17]، تشير إلى أن من بين طلبته بقرطبة في الأندلس طلبة ألمان كما تدل آثاره العلمية التي تركها على تنوعها على المكانة العلمية التي وصلها حتى وصف بأنه من أشهر علماء الإباضية الذين تركوا كتباً مهمة، وبرزوا في علم الكلام[18]، وأمعن الدرجيني في وصفه قائلاً:

((هو بحر العلم المسخر الزاخر للنفع، فترى الفلك فيه مواخر، الرفيع القدر والهمة، الجامع لفضائل كل أمة، المحتوى على علوم جمة))[19].

آثاره العلمية.

ترك الشيخ أبو يعقوب الوارجلاني عدداً من المؤلفات تعكس سعة علمه واطلاعه، وتعبّر عن ثقافة عصره حتى أن الدرجيني وصفه بالقول:

((لقد كان له في كل جو متنفس، ومن كل نار مقتبس فله يد في علم القرآن، وفي علم اللسان والحديث والأخبار، وفي رواية السر والآثار، وعلم النظر والكلام والعلوم الشرعية ، والأحكام، وعلم فرائض المواريث ...))[20].

ولشدة حرصه على العلم تذكر الروايات أنه((أقام سبعة أعوام ملازماً داره لا ينصرف منها؛ فكان متى زاره أحد وجده إما ينسخ، وإما يبرى الأقلام، وإما يطبخ الحبر، أو يسفر كتاباً، لا يعدل عن هذا الفن إلى ما سواه إلا إن قام لإداء فريضة، وكان إذا اعتمد تأليفاً أو نسخ ديواناً لا يهوله، ولا يستعظم فيه صعوبة ولا كثرة فإن له على ذلك قدرة، وذكر بعض الثقاة قال: وقفت ببلاد قسطيلية وسوف، وأريغ، ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والإنصاف، تأليف أبي يعقوب كلها بخط يده))[21].

من مؤلفاته:

1- الدليل والبرهان لأهل العقول:

هو بحث في علم الكلام يقارن فيه بين الإباضية والفرق الإسلامية الأخرى، يهتم ببعض المسائل الخاصة بجبل نفوسة ضمن إقليم طرابلس، وفي الوقت ذاته يعد موسوعة لمختلف الفنون من كلام أو تاريخ وفلسفة ومنطق ورياضيات، وعلوم وأخبار يقع في ثلاثة أجزاء وطبع أكثر من مرة[22]، وهو كما قيل أشبه بدائرة معارف إسلامية لعصر الوارجلاني[23]، وعده أبو الربيع سليمان من أعظم مؤلفاته قدراً وجلالة[24].

2- كتاب العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف:

يعد هذا المؤلف من أشهر مؤلفاته، وهو عبارة عن ثلاثة أجزاء، قام بتحقيقه الباحث عمرو خليفة النامي وهو بحث في مسائل الفقه التي لها اعتبار خاص عند الإباضيين، ويعد مصدراً أساسياً للمذهب الإباضي، لما حمله من كثير الآراء الكلامية.

3- تفسير القرآن :

يقع في سبعين جزءاً[25]، رأى البرادي منه تفسير سورتي البقرة وآل عمران[26]، ويظهر من وصف البرادي له أنه تفسير بالمأثور والرأي، وحتى الآن لا يزال هذا العمل من كتب الوارجلاني الضائعة[27].

4- مرج البحرين:

هو كتاب في علم المنطق والحساب والهندسة وكلها من مباحث الفلسفة في عصر الوارجلاني والكتاب عبارة عن رسالة صغيرة، شرحها أبو العباس الشماخي، وهو شرح مفقود، للكتاب شرح متأخر لا يزال مخطوطاً للعلامة عبد العزيز الثميني الموجين في شرح البحرين[28].

5- ترتيب مسند الربيع بن حبيب:

وهو معتمد على الإباضية في الحديث، طبع عدة مرات[29]، أعاد الوارجلاني ترتيبه على أبواب الفقه الإباضي، وأضاف إليه أبواباً أخرى، استتبعت ردود الأمام الربيع على مخالفيه، وروايات حول المسند لمحبوب الرحيل[30].

6- رسالة في تراجم رجال المسند:

اعتبرت مفقودة، ثم عثرت جمعية التراث في إطار مشروعها دليل مخطوطات وادي ميزاب على قسم منها مؤخراً بمكتبة بني يدّر يسجن، وهي عمل مهم لأنه يدور حول المسند خاصة من جانب رواته كما تكشف عن أصداء كتاب المسند، وربما تبرز جزءً مجهولاً من تاريخ العلاقات المبكرة بين الفقهين المالكي والإباضي[31].

7- فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب:

وهو مفقود ذكرت بعض المصادر أن هناك أجزاء منه موجودة في بعض خزائن ألمانيا[32].

8- أجوبة فقهية(مخ) :

لو جمعت لكونت مجلداً ضخماً.

9- رسائل متنوعة:

جمع بعضها في الجزء الأخير من كتاب الدليل والبرهان[33].

10- سير محبوب الرّحيل في تاريخ الإباضية بالمشرق:

هو شرح مفقود.

11- ديوان شعر، هو ضمن مؤلفات الوارجلاني المفقودة، ما بقى منه هو قصيدة في رثاء شيخه أيوب ابن إسماعيل[34].

12- القصيدة الحجازية، أقدم إشارة وردت حول القصيدة عند الدرجيني في كتابه طبقات المشائخ[35] ، وهذه القصيدة هي مصدرنا في تتبع رحلة الوارجلاني عبر إقليم فزان، وكان قد نظمها بمناسبة رحلته إلى الحج وتتكون من360 بيتاً جمع فيها كثيراً من فنون العلم[36].

رحلاته:

عرف الوارجلاني بكثرة تنقلاته بين الأمصار واختلفت الدوافع الكامنة ورائها، فكانت له عدة وجهات من بينها:

1- رحلته إلى الأندلس:

دفع الوارجلاني شغفه للعلم إلى شد الرحال إلى الأندلس، وأقام بقرطبة سنين عدة، ونهل من فيض علمها علوماً شتى، وكان من بين طلابها مثالاً للنبوغ النادر والأدب الجّم، والاطلاع الواسع حتى كان الأندلسيون يلقبونه بالجاحظ، وكان له طلاب بقرطبة[37] دون أن تذكر المصادر زمن ومدة إقامته بالأندلس[38].

2- رحلته إلى بلاد السودان:

انضم الوارجلاني إلى التجار، قاصداً بلاد السودان طلباً للرزق من جهة، وحبه للاستكشاف والمغامرة من جهة أخرى، متعلقاً بالظواهر الاجتماعية والجغرافية لتلك المناطق، وقد أهملت المصادر ذكر هذه الرحلة، ولولا ما دونه أبو يعقوب في كتابه الدليل والبرهان من إشارات وردت عرضاً في ثنايا الكتاب لضاع كل شيء عن هذه الرحلة، وقد جمع من رحلته هذه معارف أخرى جديدة عن طبيعة الطقس، وطبائع المخلوقات في بلاد السودان[39].

3- رحلته إلى الأراضي المقدسة عبر إقليم فزان:

جاءت تفاصيلها عبر قصيدته التي قدمنا الحديث عنها والمعروفة بالقصيدة الحجازية، وهذه الرحلة هي التي يرتكز عليها موضوع الدراسة، وهي الباعث الأساسي في كتابة رحلته، وقد درج على تسمية هذا النوع من الرحلات بالرحلات الحجازية؛ جرياً على ما ذهب إليه المغاربة والأندلسيين قديماً؛ حيث كانوا ينصون في بداية رحلاتهم على أن نواياهم هي الوجهة الحجازية بغرض حج بيت الله، وزيارة المدينة المنورة، والسلام على الرسول عليه الصلاة والسلام، بل أنهم أحيانا يصرحون بتسميتها بالرحلة الحجازية، ثم أن بعض المغاربة من خرج عن هذا العرف في التسمية- وهم قليلون وأطلقوا عليها الرحلة الحجية[40]، وهي تحوى في طياتها رحلة علمية، ذلك أن صاحب الرحلة وهو في الأغلب الأعم فقيه أو عالم من علماء الدين في مجال من مجالات الرواية والدراية[41].

تاريخ الرحلة وتدوينها.

لم يقدم لنا الوارجلاني تاريخياً بعينه لبداية قيامه برحلته من مسقط رأسه ببلاد وارجلان في اتجاه الأراضي المقدسة، فلا إشارة لذلك من خلال رحلته التي قدمها عبر ثنايا قصيدته والتي أسماها بالحجازية، فقد غاب عنها التحديد الزمني في أغلب مراحلها، واكتفى بالتحديد المكاني لمواقع البلاد التي مر بها دون تحديد للمسافات بينها، ولكن يفهم من بعض أبياتها أن صاحبها قد قام برحلته بعد أن بلغ من العمر عتيا، وفي هذا يقول:

عَلَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُهَا مِنْ قصيدة وَقَلْبِي مَشْغُولٌ وَهَمِّي وَخَاطِرِي
بِحِلِّ وَتِرْحَال وَطُــولِ مَشَقَّةٍ وَشِقَّة بعدِي عَنْ بَنِيّ الأَصَاغِرِ
وَتِذْكَارِ أَهْلِي طَـالَ نَأْيِيَ عَنْهُمُ وَأَرْحَامِ قُرْبَى مِنْ أَهَالِي الأواصِرِ
وَفَقْرِي ووقرِي وَ انْتِكَاسِي وَشِيْبَتِي وَتَوْدِيعِ أَيَّامِ الصِبَا وَالخَوَ افِرِ[42].

وهذا يجعلنا نطرح جملة من الفرضيات من بينها أن الوارجلاني لم يكن يدون مشاهداته طوال الرحلة في مسودات، والتي غالباً ما يعمد فيها الرحالة إلى تسجيل ما يمكن أن يفوته، على أن يتم التدوين النهائي بعد اكتمال الصورة الذهنية للرحلة، أو أنه اعتمد على الذاكرة في استحضار مسار الرحلة، لكن نعدل عن هذا الرأي حين نجد دقة الوارجلاني في ذكر المواقع والقرى المتناثرة في طريق الرحلة، وهي مواقع تظهر لأول مرة في مصنفات تلك الفترة، فكما نعلم لا يمكن لشخص قطع تلك المسافات، وفي أرض لم تكن معهودة عليه من قبل في ظل صعوبة تضاريس الرحلة والإرهاق الذي يعانيه الشخص، وما يترتب عليه من نسيانه لبعض مراحل الرحلة أو تقديمه لموقع على آخر من مواقع الرحلة، وهذا يقودنا لافتراض أن الوارجلاني قد دوّن جزءًا من محطات رحلته على الأقل، وخاصة تلك التي عدها مهمة خوفاً من نسيانه لها، مع العلم أن بعض القرى والبلدات الموجودة في طريق الرحلة قد تتغير تسميتها بتغير ساكنيها عبر العصور، بالإضافة إلى عدم معرفة الرحالة بلهجات أهل المنطقة المحلية، وهنا تظهر الحاجة الملحة إلى وجود دليل بالرحلة، ولعل الرحّالة كان يلجأ إليه في بعض الأوقات ليتذكر ببعض مراحل الرحلة خاصة إذا كان الدليل من أهل فزان نفسها، كما أن الركب ينضم إليه جماعة من حجاج فزان، أيضاً نظمه لرحلته في شكل أبيات شعرية جعلها لصيقة بذاكرته، خاصة وأن العرب يمتازون بالقدرة على نظم الشعر وحفظه، وكثير من تاريخ العرب في الجاهلية انتقل إلينا عن طريق الشعر، وقد يكون سبباً في إهماله للتواريخ، وهذا لا يعني أن الرحلة لم تدّون في وقتها أو في فترة قريبة من زمن وقوعها، بل العكس خاصة وأنه ربطها ببعض الأحداث التاريخية، والتي تعبّر عن حسن تناول القصيدة واهتمامه بالوزن والقافية، وهو ما جعله يهمل التواريخ من بينها تاريخ تدوينه لقصيدته تلك، ولكن بإعادة قراءة لأبيات قصيدته نجد أنه نظمها أثناء الحج ، وبعد أن بلغ من العمر عتيا وفي هذا يقول:

بِحِلِّ وَتِرْحَال وَطُــولِ مَشَقَّةٍ وَشِقَّة بعدِي عَنْ بَنِيّ الأَصَاغِرِ
وَتِذْكَارِ أَهْلِي طَـالَ نَأْيِيَ عَنْهُمُ وَأَرْحَامِ قُرْبَى مِنْ أَهَالِي الأواصِرِ
وَفَقْرِي ووقرِي وَ انْتِكَاسِي وَشِيْبَتِي وَتَوْدِيعِ أَيَّامِ الصِبَا وَالخَوَ افِرِ[43].

ولكن التاريخ الحقيقي للرحلة- وهو ما ستفصح عنه أبيات قصيدته حين تناولنا لها- هو سنة 570هـ ، في إشارة للخراب الذي حل بإحدى البلدات في طريق الرحلة، ونستعين بالمصادر التاريخية التي تناولت تلك الفترة في تغطية تفاصيل الحدث.

ومما يؤخذ على رحلته عبر إقليم فزان أنها لم تكن بنفس غزارة المعلومات بالمقارنة مع غيرها من الرحلات، وهذا ما سنلاحظه من خلال تتبعنا لخط سيرها، ومع هذا فإنها تعد منجماً بكراً يمكن الرجوع إليه والاستفادة منه في بعض الأبحاث التاريخية والجغرافية الخاصة بتاريخ فزان.

خط سير الرحلة.

أ- **طريق الذهاب:**

بداية الرحلة الخروج من وراجلان:

لم يذكر صاحب القصيدة تاريخاً معيناً لبدء رحلته وخروجه من بلده وارجلان - كما أسلفنا القول – مكتفياً بذكر خط سيرها والمصاعب والأخطار التي واجهته في الطريق، لكن نجده يحرص على تحديد المدة التي قطعها الركب من بلاده وارجلان حتى وصل إلى مكة المكرمة قائلاً:

وَحَقَّ لِمَنْ قَدْ سارَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ مِنَ الغَرْبِ حَتَّى زَارَ أَبْيَضَ زَاهِرِ[44].

ويفهم من هذا البيت أن المدة التي استغرقتها رحلته من بلده وارجلان في اتجاه الأراضي المقدسة هي ستة أشهر في رحلة الذهاب، ويبدو أن وصوله إليها كان في بداية موسم الحج، وهو ما عبر عنه في شطر البيت بالقول:

شَكَوْنَا إِلَيْهِمْ حَاجَةً بَرَحَتْ بِنَا وَخِفْنَا فَوَاتَ الحَجِّ إِنْ لَم نُبادِرِ

وبما أن رحلته استغرقت ستة أشهر في طريق الذهاب فإننا نعتقد أن خروجه كان بداية شهر جمادى الآخرة حتى بلغ الحج شهر ذي الحجة، من سنة 570 هـ، وهذا بدوره يقودنا إلى أن طريق الذهاب كان مسلوكاً من قبل رحلة الوارجلاني حتى يعرف الركب أن الستة أشهر كافية لقطع الرحلة ومصاعبها والتي بعضها قد يستجد أثناء الرحلة، لكن الجديد في الأمر أن الوارجلاني من خلال رحلته يعد أو من أشار لهذا الطريق، وهذا بدوره تأكيد آخر على أن مع الركب كان هناك دليل لدرجة أنه كان على علم بالمدة الزمنية التي تحتاجها رحلة الوصول إلى الأراضي المقدسة.

ويفهم من قراءتنا لأحد الأبيات أن هذه الرحلة في اتجاه البقاع المقدسة تمت ضمن مجموعة من وجهاء القوم من أهل وارجلان دون ذكر لتلك الشخصيات التي فيما يبدو أنها كانت من عِلية القوم، وفي هذا يقول الوارجلاني:

خَرَجْنَا نَؤُمُّ الشَّرْقَ مِنْ حِيزِوَارجلاَن بِفِتْيَانِ صِدْقٍ منْ وُجُوهِ العَشَائِرِ[45].

وعلى الرغم من عدم إفصاح الوارجلاني عن الجماعة التي يتكون منها الركب؛ إلا أننا ومن خلال أحدى الروايات التي أمدنا بها الدرجيني نستطيع أن نستشف منها أن أبا عمار عبد الكافي التناوتي هو أحد رفاق الوارجلاني في الركب[46].ولعل الرحلة كان بها دليلاً وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه فيما سبق من أن الوارجلاني كان يعلم تماماً أن ستة أشهر كافية للوصول إلى الحج من وارجلان، وكذلك دقة وصفه لبعض المناطق في طريق الرحلة التي فيما يبدو أنها شهدت حرباً بين قبيلتي رهانة وبني فركال البربريتين حتى أفنوا بعضهم، وقد يكون قد تعرف على هذا الموقع من خلال العظام كما أشار في موضع آخر من قصيدته، وهذا الدليل يدعى أبا تغلب[47].كما أنه لم يورد معلومات عن خط سيره من وارجلان، وما أورده لا يتعد أن تكون أسماء لنقاط مياه، لكنه لم ينسِ أن يتحدث عن أهوال الرحلة في الصحراء قبل الولوج إلى فزان، وأنهم كادوا يهلكوا عطشاً لدرجة أنهم لطخوا أنفسهم بالوحل.

الركب داخل قرى فزان:

دون تحديد هذه المرة أيضاً للمدة التي قطعها الركب في الوصول إلى فزان ولا تاريخ وصوله، وهذا يدفعنا إلى الاعتماد على ما ورد عند الجغرافيين والبلدانيين، وبعض المراجع ذات الصلة بالمدن والقرى في تغطية هذه المسافات، خصوصاً وأن المسافة لا يمكن لها أن تتغير إلا بتغير الطريق نفسه، وبتتبعنا لخط سير الرحلة نجد أن الوارجلاني دخل فزان من الطرف الغربي لوادي الآجال[48]، وفي هذا يقول:

لِبَحْرَيْنِ بَحْرٍ مَالِحٍ وَسْطَ رَمْلَةٍ وَرَمْلٍ كَأَمْثَالِ البِحَـــارِ الزَّوَاخِرِ

وَتَعْزِفُ فِيهِ الجِنُّ فَوْقَ رُؤُوسِنَا كَمَا عَزَفَتْ بِيضُ الدُّمَى بِالْمَزَامِرِ[49] .

فقد قصد الوارجلاني من خلال هذا البيت وادي الآجال ورغم أهمية هذا الوادي لم يشرِ الوارجلاني إلى ما تمتع به من خصوبة وجودة ثماره وفواكه، وتنوع نخيله، وأهمية مراعيه للأبل والتي تميزت بكثرتها، وتوجد بغرب هذا الوادي بحيرات ماء تحيط بها رمال الصحراء من كل جانب، وأعظم هذه البحيرات بحيرة قبرعون وتعد مياهها من أجود المياه المعدنية، وتتميز بالملوحة وكان أهل تلك النواحي يستشفون بها من الأمراض شراباً واستحماماً[50] ولعل تأكيده في شطر البيت الثاني على الصوت الذي تصدره الرياح جهة البحر المقصود في البيت يصدر فعلا جهة بحيرة قبرعون لدرجة يخيل لسامعها بأنها أصوات الجن، ويؤكد كذلك على ما ذهبنا إليه فيما يخص دخوله من وادي الآجال. كما وصف بعناية حالة العطش التي انتابتهم في تلك الرمال المحرقة، الأمر الذي أضطرهم إلى تلطيخ أنفسهم بالوحل عند نقطة تعرف بماء الزعفران، ومنه انتقلوا إلى موضع آخر اسمه جغراف، وهي نقاط ماء بشرق الجزائر، ولعل الأبيات التالية من قصيدته تصور الحال الذي كانوا عليه:

وَبِتْنَا بِمَاءِ الزَّعْـــفرَانِ نَجُمُّهُ كَأَنَّ نِسَاءً لُطخَتْ بِالزَّعَافر

فَلأْيًا بِلأْيٍ مَا ارْتَوَيْنَا وَأَسْرعَتْ إِلَى جُغرَافٍ وَارِدَات الزَّرَازِرِ[51].

الوصول إلى جرمة:

كانت جرمة أول المدن التي وصلها الركب وتحدث عنها الوارجلاني دون أن يقدم وصفاً لها ويبدو أنها ذات أهمية، مكتفياً بذكر كرم أهلها، ربما لعدم مكوثه فيها كثيراً وفيها يقول الوارجلاني:

مُجَـــابَةُ تِجْلِزَّامَ أَيُّ مُجَـابَة لَهَا حَاجِزَانِ بَيْنَ رَمْلٍ وَحَاجِرِ

جَزَى الله عَنَا جِـــرْمَة وَبِلاَدَهَا وَفَزَّانَ خَيْراً شَاكِراً غَيْرَ كَـافِرِ

هُمُ أَوْسَعُونَا مَا اسْتَطَاعُوا بِخَيْرِهِمْ وَعَافِيَةٍ جَلَّتْ وَمِنْ تَامِرِ تامر[52].

المرور بتبستو، سبها، سهنا، وماطر.

ومن جرمة سار الركب مع وادي الآجال في اتجاه الشرق بمحاذاة سلسلة من الجبال عن يمينه، والكثبان الرملية عن يساره، ليصل إلى موقع اسمه تبستو لعله هنا قصد بلدة الأبيض؛ وهي من قرى فزان[53]على اعتبار أنها أقرب بلدة في الطريق مأهولة بالسكان ويظهر أن الوارجلاني قد نزل بها دون أن يحدد المدة التي مكث فيها، وسار منها ليكمل مروره بباقي محطات طريقه وفي هذا يقول:

وَكَانت تِبَسْتُو مَنْزِلاً نَزَلْتُ بِهِ وَرَاحَتْ إِلَىَ سَبْهَا وسُهْنَا وَمَاطِرِ[54].

وبعد قطع 65 كم[55] من المسير من بلدة الأبيض تصل الرحلة إلى سبها، والتي كانت تعرف بسباب أو سبهي أو سباهة[56]، ويبدو أن هذه التسميات كانت تعرف بها المدينة قبل رحلة الوراجلاني، وقبل أن تحّرف لسبها التي وردت في قصيدة الوارجلاني، وهو نفس الاسم الذي تعرف به المدينة اليوم، تنتقل الرحلة بعد ذلك لمحطة أخري وهي بلدة سهنا أو سمنو[57]، ثم يتحرك الركب إلى الشمال منها بحوالي 10 كم ليصل إلى بلدة ماطر والتي تسمى اليوم (الزيغن) [58] دون أن يشير الوارجلاني لا من قريب ولا من بعيد إلى كيفية عبوره لهذه النقاط، ولا كيفية إقامته خاصة وأن طبيعة المرحلة القادمة في رحلته تحتم عليه الاستراحة على الأقل في ماطر؛ فالدواب تحتاج إلى راحة كما تحتاج إلى أن تتزود بالأعشاب والمياه؛ لأنه سيواجه طريقاً خالياً من مظاهر الحياة حتى يصل إلى أقرب نقطة في طريق الرحلة، والتي تبعد حوالي 250 كم.

منزل العباد، والهاروج:

يسترسل الوارجلاني في وصف باقي مراحل طريق ركب الحج الوارجلاني عبر أبيات قصيدته قائلاً:

وَجَازَتْ عَلَى زُدّيج وَهِيَ مَشِيحَة إِلَى مَنْزِلِ العُبَّادِ ذَاتِ الفَقَائِر

وَقَدْ هَرَجَ الهَارُوجُ مِنْهَا سِمَانَهَا وَمَـرْمَرَهَا زُدَيْجُ كُل المَرَامِر[59].

تأتي البلدة الثانية بعد ماطر هي منزل العبّاد كما يسميها الوارجلاني أو بلدة الفقهاء أو الفقهة، وهو الاسم الذي تعرف به اليوم، وكانت قديماً تعرف باسم مستيح[60] وعلى القوافل أن تقطع السرير المعروف اليوم بسرير القاف الخالي من المياه لمسافة تزيد عن 250 كم قبل الولوج في جبال الهاروج البركانية، وجبال الهاروج هي سلسلة جبال بركانية موحشة تمتد على مساحة واسعة بين فزان وطرابلس، في شكل التلال المخروطي غير الكامل والتفاوت بين قممها ليس كبيراً، وترتفع عن بعض ما بين 8-12 قدماً، وجبال الهاروج تنقسم إلى قسمين:

جبال بازلتية سوداء اللون، وتسمى الهاروج الأسود، وتلال كلسية بيضاء اللون تسمى الهاروج الأبيض، وعلى الرغم من جفاف جبال الهاروج ومظهرها القاحل، فإنها تتعرض أحياناً لسقوط أمطار غزيرة يترتب عليها تحول بعض الأحواض والوديان الصخرية المكشوفة إلى خزانات مائية كبيرة تبقى فيها المياه معظم أيام السنة، وكان وجود هذه الغدران عاملاً مهماً في توجيه طرق

القوافل التي ينحرف بعضها عن اتجاهه الأصلي ليمر بهذه المنطقة للحصول على الماء حتى لو أدى ذلك إلى زيادة طول الطريق[61].

ولعل اتخاذ الركب لطريق جبال الهاروج ذات التضاريس الصعبة متعلق بدرجة أمن الطريق واحتوائها على الماء، ولكن السير في هذه الجبال أضعف سمان الإبل حتى بدأت تتمايل من الضعف وبهذا تعد هذه المرحلة من أشق المراحل وأعسرها.

الوصول إلى زلة:

كانت المحطة الجديدة في طريق الركب هي مدينة زلة، وهي نفس الاسم الذي تعرف به اليوم، فقد كانت قديماً تعرف بأوزالة أو زلهي[62]، والتي تقدر المسافة بينها وبين بلدة الفقهاء بحوالي 120كم، وقد وصف الوارجلاني أهل زلة بالكرم والشجاعة قائلاً:

فَلَما أَنَخْـنَاهَا إِلَى قَصْرِزُّلَّةٍ أَنخَنْاَ إِلىَ قَوْمٍ هُمَـامٍ مُغاوِرِ
إِلىَ سَيِّدٍ يُعْطِى الجَزِيلَ وَيَنْتَمِي إِلىَ سَيِّد النَّاسِ الكِرَامِ الأَكَابِرِ[63].

الركب في جالو وأرز اقية، وزيدانها، وسنترية:

اتجه الركب من مدينة زلة إلى بئر أبي نائم، والذي يقع إلى الشرق من زلة بمسافة ثلاث مراحل[64]؛ أي ما يقارب 120كم، ومنه إلى جالو[65]على الرغم من أن المنطقة تقع خارج منطقة الدراسة لكن تتبع خط سير رحلة الوارجلاني في اتجاه الأراضي المقدسة يحتم علينا تتبعه، حتى ولوجها إلى مصر؛ ولأن الرحلة ستتخذ بعض محطات هذا الخط في طريق العودة وبعد قطع حوالى 30كم[66] تصل رحلة الركب إلى أرزاقية[67]، ويبدو أن من جماعة الركب عندما وصلوا جالو وأرزاقية (أوجلة) طلبوا الخفارة من أهل تلك النواحي بحيث يؤمنوا لهم الطريق، ويكونوا حراساً لهم إما لخطر اعترضهم أو لعلمهم بالمخاطر التي يمكن أن تعترضهم في هذه النقاط فطلبوا الحماية مبكراً. ويبدو أن المهمة وقعت على عاتق بني هلال، فقد تمكنت أوجلة خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من مزاولة نشاطها التجاري بشكل كبير إذا اشتهرت المدينة بكثرة تجارتها، وذلك على قدر احتياجاتهم واحتياجات العرب[68] الهلالية والسليمية ويبدو أن المنتجات الزراعية المقدمة من أهل أوجلة إلى بني هلال كانت مدفوعة الثمن من قبل هؤلاء فيما تقدمه من خدمات الإدلاء والهداية للقوافل إلى جانب الخفارة، ولعل قبيلة هيب من بني سليم هي من يقع على عاتقها تلك المهمة[69]، والتي هيأ لها مجالها الجغرافي أن تقوم بدور الوسيط في تلك التجارة،[70]وبذلك تحول اقتصاد هذه القبائل المبني على الرعي إلى اقتصاد يقوم على الاهتمام بطرق التجارة نفسها.

وصلت القافلة بعد ذلك إلى بئر زيدان وهو بئر يقع إلى الشرق من أوجلة، وزيدان المقصود هنا هو زيدان بن حميد بن زيدان بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن زيدان بن عبدالله بن حسين بن علي بن عبدالله بن محمد بن علي بن الحسين بن على بن أبي طالب رضي الله عنه-جد الزيادين- وهو غير قصر زيدان الفتى الذي ذكره الحموي بين أجدابيا وأوجلة[71] .

ولكي نستوضح اتجه الطريق بشكل أكبر بعد قطع هذا البئر نستعين بالأبيات التالية:

فجَـــالوُا وَأَرْزُقِـــيَّةَ وَبِلاَدَهَا وَزِيدَانَها كُلاًّقَطَعْنَا بِخَـــافِرِ
وَسَارَتْ تَبَارَا فِي تَبَارَا كَـأَنَّهَا نَعَائِم هُجْل رُعْنَ مِنْ صَوْتِ ذَاعِرِ
فَيُجْهِضْنَ بالأَوْلاَد فِي كُلُّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَا بِهِ يُودِعْنَهَا بِالقَـــر اقِرِ
خَرَجْنَا بِهَا شَوْلاً وَأَصْبَحْنَ حولَلاً شَوَائِلَ بِالأَذْنَابِ غَيْرَ خَـوَاطِرِ
حَـــفَرْنَا وَأَجْهَرْنَا وَمُحنا زِقَاقَنَا ونَحْنُ وُقُوفٌ فِي ظُهُورِ الأَعَابِرِ
عَلَى مَـاءِ الأَثْوَامِ ابْتَلَلْنَا بلاَلَنَا وَصِرْنَا شَرِيحٌ مُسْتَمِيحٌ وَخَـافِرِ
وَأَصْبَحَ بِئْرُ ابن المُكسَّـرِ رَاوِيًا لأَصْحَابِهِ يَنْحُونَهُ بِالجَـــزَائِرِ
تخَالُ مَطَـايَانَا لَدَى سنْتَرِيَّةَ وَقَدْ جَفَلَتْ مِنْهَا سِمَانَ المَقَائِرِ[72].

كانت سنترية[73]المحطة الأخيرة من محطات الركب عبر أراضي إقليم برقة قبل الولوج إلى مصر دون أن يحدد الوارجلاني الطريق الذي سلكه إليها، ويورد أحد الباحثين[74] طريقين يقودان إلى سنترية:

الأول: يمر شمال الرملة وطوله (550 كم) ويُقطع في عشرة أيام[75]، ويقع في 16 مرحلة في صحراء رملية قليلة المياه[76].

الثاني: يخترق بحر الرمال ويقدر طوله (450 كم) ويستغرق ثمانية أيام[77]، ويرى أحد الباحثين إمكانية قطعه في ثلاثة عشر يوماً، ولعلّ الاختلاف في تقدير مدة الرحلة عبر هذا الطريق يكمن في استراحة الجمال التي تتكون منها قافلة الركب؛ فالجمل يقطع بحمولة عادية أربعة كيلو مترات في الساعة على الأقل، ويسير من ست إلى سبع ساعات في اليوم أي أنه يقطع خمسة وعشرين إلى ثلاثين كيلو متراً يومياً ويمكن مضاعفة المراحل بشرط أن يعطي ثلث الزمن لراحة الدواب مقابل ثلثين للسير، وهذا يعني أن متوسط المسافة التي يقطعها الجمل يمكن أن تصل إلى أربعين متراً في اليوم[78]، ويبدو أن هذا السبب في اختلاف تقدير المدة التي تستغرقها الرحلة عبر هذا الطريق، ونعتقد أن الوارجلاني سلك هذا الطريق لكونه أكثر أمناً، وأقصر من حيث المسافة[79].

طريق العودة:

سلك الركب في بعض مراحل رحلته عبر إقليم فزان طريقاً مغايراً لطريق سيره في رحلة الذهاب إلى الأراضي المقدسة، وليس الغاية هنا إعادة تكرار لخط سير الذهاب، بقدر ما هو تتبع المحطة التي تم فيها تغيير الطريق والسبب الكامن وراء ذلك.

سنترية وبئر زيدان:

بعد عودة الركب من رحلة الحج عبر مصر ومرورها على سنترية وباقي الواحات، مرت القافلة على بئر زيدان الواقع إلى الشرق من أوجلة، وفي هذا يقول الوارجلاني:

فَلَمَّا وَرَدْنَا مَاءَ زَيْدَانَ قَلَصَتْ بُطُون بنِى تَادَا ذَوَاتَ المَجَاعِرِ[80].

الوصول إلى زلة:

اتجه الركب من ماء زيدان إلى زلة والتي أحس الوارجلاني عند وصوله لها بزوال الهم والغم، ربما للأخطار التي واجهته قبل الوصول إليها، خاصة وأنه- كما مر بنا- طلب الخفارة في أوجلة والتي كان على الركب المرور بها دون أن يشير الوارجلاني لذلك، وعند وصول إلى زلة انشد قائلاً:

وَفَرَّجَ عَنَّا كُلُّ هَـــمَّ وَغَمَّةٍ دُرَا زِلَّةٍ ذَاتِ العُيُونِ المَـوَائِرِ
فَلَمَّـــا وَطِئْنَا أَرْضَ أَفْرَجَتْ بِأَرْوَاعِنَا كُلَّ الهُمُـومِ السَّوَاهِرِ
شَمَمْنَا بِهَا أَرْوَاحَ مَغْرِبِنَا التِي تُحَاكِي مِنَ الأَرْوَاحِ شُمَّ الدَّرَائِرِ[81].

انقسام القافلة:

كانت زلة المحطة الأخيرة في طريق عودة الركب مجتمعاً قبل أن ينقسم بها إلى

قسمين:

قسم من الركب اتخذ جهة اليمين متجهاً نحو الغرب في اتجاه ودّان، والقسم الآخر اتجه إلى آدر وهو المكان الذي تفترق منه طريق ودان الفقهاء بعد زلة 15 كم[82]، وهو نفس طريق الذهاب الذي سلكه الوارجلاني ومن معه في الركب، وفي هذا يقول:

هُنَاكَ اخْتَلَفْنَا مِثْلَ أَوَّلِ مَرَّةٍ فَبَعْضُ إِلَى وَدَّانَ وَالبَعْضُ آدَرِ[83].

وكان الوارجلاني ورفاقه في رحلة العودة قد سلكوا نفس طريق الذهاب، فعبروا جبال الهاروج، ويبدو أنهم قد وجدوا العشب قد كساها، ونعتقد من خلال وصفه لها أنه قد ارتاح فيها قليلاً، خاصة وأن دوابهم ما من شك في حاجة للراحة بعد قطع أيام وليالي من المسير في الفيافي المقفرة، ونستعين هنا ببعض من أبيات قصيدته لتتبع ذلك المسار بشكل أوضح:

وَصِرْنَا إِلَى الْيُسْرَى كَأَوَّلِ مَرَّةٍ وَكَانَ بِحَمـــْدِ اللهِ أَيْسَرُ يَاسِرِ

وَجُزْنَا عَلَى الهَارُوجِ ثَانِي مَرَّةٍ وَقَــدْ أَعْقَبْنَا مُعْـصِرَات الصَّبَائِرِ

وَأَمْـرَعَ مِنْ قِيعَانِهَا كُلّ جَانِبٍ فَجَادَ عَلَى الظُّهْرِ الضَّعِيفِ المُجَاسِرِ

وَفِي جَبَلِ الهَارُوجِ لِلنَّاسِ آيةٌ لَهُ مَنْظَرٌ كَالبَحْرِ شُمِّ المـــناظر[84].

منزل العباد مرة أخرى:

كانت منزل العباد أو الفقهاء كما اتفقنا على تسميتها هي المحطة الجديدة في خط سير العودة ولكن الجديد هنا أن مدينة الفقهاء لم تعد كما كانت عليه قبل ذهابه لأداء فريضة الحج، فقد دمرت وقتل أهلها؛ لذلك نجد الوارجلاني يتأسف للحالة التي وصلتها، قائلاً:

فَيا مَنْزِلَ العُبَّادِ أَصْبَحْتَ مُوحِشاً وَجَـرَّ عَلَيْكَ الدَّهْرُ ذَيْلَ الأَعَاصِرِ

وَأَصْبَحَ أَهْـــلُكَ الَّذِينَ تَتَابَعُوا كَأَحْلاَمِ نَوْمٍ بَلْ كَآثَارِ عَـــابِرِ

تَرَكْنَاكَ يَا وُدَّان شَاماً مغـربًا وَطِبْنَا نُفُوسًا عَنْ ثِمَارِ التَّسَافُرِ[85].

ويبدو أن تدمير بلدة الفقهاء راجع لتحركات قراقوش[86] في تلك الجهات[87]، فبعد أن أحكم سيطرته على أوجلة[88]، وأوقع بأهلها وغنم منهم أموالاً طائلة[89]، توجه إلى الغرب واستولى على زلة ووصل حتى زويلة من بلاد فزان، وتمكن من السيطرة عليها وإزاحة مملكة بني خطاب من هوارة، وقبض على آخر حكامها محمد بن الخطاب[90] سنة 570 هـ ونعتقد أن وصوله إلى زويلة تم عبر بلدة الفقهاء بعد عبوره لبلدة تمسة والتي تبعد مسيرة يومين عن زويلة[91]، لوجود مقطع من طريق ودان- زويلة يمر ببلدة الفقهاء قبل الوصول لزويلة نفسها[92]، كما أن هذا الطريق مقطع من طريق طويل وهو طريق مصر- الواحات- زويلة –بلاد السودان، وبهذا يكون قراقوش قد أعاد إحياء الطريق الصحراوي القديم الذي هُجر خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ليس بفعل العواصف وحدها - كما ذكرت أحد المصادر[93]- بل لقلّة المياه[94]، ولتصبح التجارة مع السودان تحت يده، وبهذا تظهر الأهداف الاقتصادية من وراء سيطرة قراقوش على هذا الطريق، ويبدو أن هذا السبب في تغيير الوارجلاني للمراحل الأخيرة من خط سيره في الذهاب لخط آخر في طريق العودة بالإضافة لقصر مسافته مقارنة مع خط الذهاب.

الركب في بوينسة، تمزاو، وادي الكو افر، درج، غدامس:

اتجه الركب من الفقهاء قاطعاً المفازة التي بينها وبين بوينسة(البوانيس اليوم وهي الزيغن وسمنو وتمنهنت)، ولأول مرة ينطق الوارجلاني التسمية كاملة على هذا البلدات، وهذا يحيلنا إلى أن الوارجلاني قد استراح في هذه النقاط في طريق ذهابه للحج، ولأن الركب في طريق عودته، وتحديداً عند وصوله إلى بوينسة(البوانيس اليوم) اتخذ طريقاً جديداً حتى وصل إلى أقدم واحة من واحات فزان تمزاو أو تامزاوات حسب المصادر الإباضية[95]، أو تامزاوة -كما تسمي اليوم بوادي الشاطئ- وذلك بعد قطع مساحة كبيرة من الرمال(زلاف)[96]، وكان عليه في سبيل بلوغ درج وهي بلد يتبع لغدامس، وبه عيون ماء جارية ونخيل[97] أن يمر بالحمادة بعد قطع جبل فزان، وترتبط درج بطريق مع ودان التي يتواجد بها جزء من الركب بعد انقسامه في زلة-كما سبق أن أشرنا- وهذا يعني استخدام من تبقى من هذا الركب في ودّان لهذا الطريق، ليلتقي مع الجزء الآخر من الركب المتواجد فيه الوارجلاني نفسه، وبهذا يلتقِ في درج طريق ودّان مع طريق تامزاوة بوادي الشاطئ، ومنها إلى غدامس وأخيراً مسقط رأسه وارجلان وفي هذا يقول:

وَلَكِنْ مِنْ يَوْنَسَةٍ عَرَّجَــتْ بِنَا إِلَى تَمْزَا وَادِي الكُفُورِ الكَوَافِرِ

إِلَى صَوْبِ دَرْجٍ ثُمَّ أَرْضِ غَدَامِس مُـفَوِّزَ وَبَاغٍ كُلِّ أَرْضٍ وَنَادِرِ[98].

الخاتمة

بعد هذا العرض لموضوع الدراسة والمعنون بـ **"محطات من أدب الرحلة في المجال الصحراوي" رحلة الوارجلاني أنموذجاً** يمكن حوصلة بعض النتائج كما يلي:

- قدّم الوارجلاني أنموذجاً جديداً من أدب الرحلة تمكّن من خلاله استحضار جميع ملامح أدب الرحلة في قالب شعري، وهي تجربة ذاتية انفرد بها عن غيره وخرج عن المألوف، واختار أن يدوّن تجربته شعراً لا نثراً، وهي بذلك رحلة تختلف من حيث الشكل والأسلوب عن نصوص الرحلات المتوفرة في الخزانات العربية، والتي يغلب عليها الطابع النثري، وربما ينم ذلك عن تكوينه الفكري وثقافته، وأنه كان شاعراً استطاع أن يجمع بين جمالية الشعر وأدب الرحلة.

- تعد رحلة الوارجلاني صورة حية لمقتطفات من تاريخ فزان؛ نظراً لاتساعها المكاني، واشتمالها على بعض المعارف من تاريخ وجغرافيا، وجوانب من الحياة الاجتماعية لساكنة فزان أغفلتها المدونات التاريخية الرسمية، لهذا تعد رحلته منجماً بكراً يمكن الرجوع إليها، والاستفادة منها في بعض الأبحاث التاريخية والجغرافية الخاصة بتاريخ فزان، خصوصاً وأنها أدت غرض وخصائص فن الرحلة بوصف المكان والزمان، وما تضمنته من قصص ومغامرات متنوعة، مع وصف الرحّالة لمراحل الرحلة وذكر المصاعب التي اعترضته، وإبرازه لبعض العادات الاجتماعية السائدة عند سكان المناطق التي وصلها.

- يظهر من خلال رحلة الوارجلاني إلى الحج براعة صاحبها في جذب القارئ إلى الغوص في أعماق الرحلة، حتى يخيل إليه كأنه كان ضمن الركب وعاش مصاعب الرحلة وتفاعل معها بكل تفاصيلها، كما نجد أنفسنا أمام نوع جديد من الرحلات سواء أ كان في الحوافز، أم الاهتمامات، أم حتى طريقة التدوين.

- المادة المصدرية التي قدمها الوارجلاني عبر رحلته عن طرق ودروب فزان ومقارنتها مع ما وفرته كتب الرحلات تُمكّنا من رسم خريطة للمنطقة في تلك الفترة.

-شكلت فزان معبراً رئيساً لقوافل الحج في اتجاه الأراضي المقدسة، وأشارت رحلة الوارجلاني إلى كرم الضيافة، وحسن الاستقبال الذي يتمتع به الحجيج في اتجاه الأراضي المقدسة، كما عبرت عن الأمن والأمان الذي نعمت به في عهد حكامها من

بني خطاب، وعكست بعض من جوانب الحياة الاجتماعية التي يتمتع بها أهل الإقليم من بينها الكرم والشجاعة، والأهم من ذلك كله أن فزان يمكن الدخول إليها من أكثر من طريق.

(*)الاثنوغرافيا: علم اجتماعي يصف أحوال الشعوب، ويدرس أنماط حياتهم، ومختلف المظاهر المادية لنشاطهم في مؤسساتهم وتقاليدهم، وعاداتهم كالمأكل، والمشرب، والملبس وغيرها. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص 32-37.

[11]- قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب،ط2، القاهرة،2002،ص117.

[2]- ضيف، شوقي، الرحلات، دار المعارف،ط4،القاهرة،د.ت،ص9.

[3]- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب العباسي، تاريخ البلدان، دار صادر، بيروت،(د.ت)،ص345.

[4]- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، المسالك والممالك،م2،ط1، تحقيق: جمال طلبة، منشورات محمد علي بيضون، ودار الكتب العلمية،2003، ص182-185؛الإدريسي، أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق،م1،مكتبة الثقافة الدينية،ص112-116.

5 - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله ،معجم البلدان،ج4،دارصادر،بيروت،ص122.

[6]- البكري، معجم ما استعجم،ج4،لجنة التأليف والنشر،1945،ص1375.

[7]-ابن حوقل، أبو القاسم بن محمد ،صورة الأرض،م1،دار صادر، بيروت،(د.ت)،ص67.

[8]- الإدريسي، نزهة المشتاق،م1،، ص116.

[9]- ابن حوقل،صورةالأرض،م1،ص106.

10- ابنغلبون، أبي عبدالله محمد بن خليل التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، عنى بتصحيحه الطاهر أحمد الزاوى،المدارالإسلامى،بيروت،ص105.

11-محمد سليمان أيوب، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى 1911 ميلادية، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب،(د.ت)،ص69.

[12]- اليعقوبى،البلدان،ص345.

[13]- الدرجيني، أبي العباس أحمد بن سعيد، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاّي، دار البعثة، قسطنطينة،ج2، ط1، 1970،ص491.

[14]- نفسه، والصفحة.

[15]-الزركلى، خير الدين، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)،ج،ط5، دار العلم للملايين،بيروت،1980،ص178.

[16]-الدرجيني، طبقات المشائخ،ج2، ص491.

(*)الإباضية: فرقة إسلامية ترى في عبدالله بن إباض إماماً لها، كانت البصرة المركز الرئيس لنشأة الفكر الإباضي وقاعدته الأولى، وقد انتشر هذا الفكر ببلاد المغرب في النصف الأول من القرن الثاني الهجرى/ الثامن الميلادي، ويعتقد الإباضية كفرقة أن مخالفيهم من بقية المسلمين هم غير مشركين وغير مؤمنين، لكن تجوز شهادتهم والزواج والتوارث منهم، وقالوا باستحلال جزء من أموال مخالفيهم في الحرب، وهما الخيل والسلاح، وأن مساكن مخالفيهم دار إسلام إلا معسكر السلطان فهو دار حرب. البغدادي، أبو منصور عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي، الفرق بين الفرق، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشب، مكتبة ابن سينا القاهرة، د.ت،ص95؛ابن حزم، أبو محمد بن علي بن سعيد الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن بن عميرة، دار الجيل، بيروت، د.ت،ص273.

[17]- هونكة، زغريد، شمس العرب تسطع على الغرب،ص87.

[18]- مجموعة من الباحثين، معجم علماء الإباضية،ج1991،4ص1011.

[19]- الدرجيني، الطبقات، ج2،ص491..

[20]- نفسه، والصفحة.

[21]- نفسه،ج2،ص492.

[22]- حفناوي بعلى، الرحلات الحجازية المغاربية(المغاربة الأعلام في البلد الحرام، دراسة نقدية)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2018، ص310.

[23]- مجموعة من الباحثين، الأعمال التمهيدية لموسوعة الفقه الإباضي ((كتاب العدل والأنصاف في معرفة أصول الفقه والاختلاف))، المصطلحات ورؤوس المسائل،سلطنةعمان،ط2011،1،ص15.

[24]- الباروني، أبو الربيع سليمان، مختصر تاريخ الإباضية، منشورات تاوالت،د.ت، ص91.

[25]- بعلى،الرحلات الحجازية، ص310.

[26]- رحلات إباضية، رحلة الوارجلاني، تحقيق: يحيى بلهون حاج أحمد،ط1، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع،الجزائر،2011، ص12.

[27]- مجموعة من الباحثين، الأعمال التمهيدية لموسوعة الفقه الإباضي، ص14.

[28]- المرجع نفسه، ص16.

[29]-نفسه،ص13.

[30]- نفسه، ص14،15.

[31]- نفسه، ص15.

[32]- مجموعة من الباحثين، معجم علماء الإباضية،ص1013.

[33]- بن بهون،رحلةالوارجلاني،ص16.

[34]- الدرجيني، طبقات المشائخ، ج2، ص462.

[35]- نفسه، ج2،ص494.

[36]- علي يحيي بن معمر، الإباضية في موكب التاريخ، مكتبة وهبة القاهرة، ط1، 1989، ص239.

[37]- هونكة، شمش العرب تسطع على الغرب،.

[38]- بن بهون،رحلة الوارجلاني،ص16،17.

[39]- نفسه،ص20.

[66]- نفسه والصفحة؛ الإدريسي، نزهة المشتاق،م1،ص312.

[67]-أرزاقية:اسم المدينة أرزاقية، وأوجلة اسم الناحية، التي هي عبارة عن قرى كثيرة فيها نخل وفواكه، وشجر كثيف، وبالمدينة مساجد وأسواق البكري، المسالك والممالك،م2،ص184.كثيرة التجارة، وهي وبرقة واحدة. الإدريسي ،نزهةالمشتاق،م1،ص312.

[68]- الإدريسي،نزهةالمشتاق،م1،ص312.

[69]- المغربي، ابن سعيد، بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق: خوان قرنيط خينيس،تطوان،1958،ص62.

[70]- نفسه والصفحة

[71]- عبدالصمد عبد القادر عبد الصمد، رحلات الحج عبر فزان،ص82،83.

[72]- بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص44.

[73]-سنترية: أو سيوة تبعد عن أوجلة 10 مراحل في الصحراء، وهي قليلة الماء، كثيرة الثمار والحصون، وأهلها من البربر. ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج3،ص261.

[74]- عبد الصمد، رحلات الحج عبر فزان،ص70.

[75]- تيرى، جاك، تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى،ط1،ترجمة :جاد الله عزوز الطلحي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والأعلان،2004،ص558.

[76]- ابن مليح،، الرحلة،ص142.

[77]- تيري، تاريخ الصحراء الليبية،ص558.

[78]-نفسه،ص114.

[79]- ابن مليح،.الرحلة،ص142.

[80]- بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص66.

[81]- نفسه والصفحة.

[82]- عبد الصمد، رحلات الحج عبر فزان،ص84.

[83]- بن بهون، رحلة الوارجلاني، ص60.

[84]- نفسه،ص66،67.

[85]- نوع من التمر الجيد، بن بهون، رحلة الوارجلاني، ص67.

[86]- قراقوش: لفظ تركي معناه العقاب، وهو اسم الطائر الجارح المعروف. ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص254،255. وهو مملوك لتقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين الأيوبي،؛ أبو القاسم بن عبد الرحمن أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين،ج1،القاهرة،1287-1288هـ،ص260.

[87]- المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك،ج1،ط1،تحقيق:محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون ودار الكتب العلمية،بيروت،1997،ص64.

[88]- نفسه والصفحة..

[89]-العيني، بدر الدين محمود، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،ج1،ط2، تحقيق ودراسة: محمود رزق محمود، مطبعة دار الكتب والوثائقالمصرية،القاهرة،2010،.ص229.

[90]- ابن غلبون، التذكار، ص66.

[91]- البكري،المسالكوالممالك،م2،ص184.

[92]- نفسه،م2،ص185-187.

[40]- بويوزان، بن عيسى أحمد، فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي (من خلال رحلات الحج من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجري)، بحث ضمن مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 1426، ص235،236.

[41]- العلوى، سعيد بن سعيد، أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس أكدال،1995،ص1-28.

[42]- بن بهون، رحلة الوارجلاني، ص20.

[43]- نفسه والصفحة.

[44]-يقصد مكة المكرمة. بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص52.

[45]- نفسه، ص37.

[46]- الدرجيني، طبقات المشائخ،ج2،ص490.

[47]- بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص38.

[48]- وادي الآجال: وادي من أودية فزان المشهورة بالخصب وكثرة الثمار، فيه أنواع كثيرة من الثمور، كثير المراعي، تكتنفه من الجنوب والشرق جبال شاهقة، ومن الغرب رمال وبهذه الرمال مستنقعات كثيرة ماؤها مالح نتن الرائحة. الزاوي، الطاهر أحمد، معجم البلدان الليبية ،ط1،مكتبة النور، طرابلس،1968،ص335.

[49]- بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص39.

[50]- الزاوي، معجم البلدان الليبية،ص336،335.

[51]- بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص41.

[52]-نفسه،ص42.

[53]- الزاوي، معجم البلدان الليبية،ص20.

[54]- بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص43.

[55]- الزاوي، معجم البلدان الليبية،ص20.

[56]- البكري، المسالك والممالك ،ج2،ص1

[57]- الزاوي، معجم البلدان الليبية،ص194.

[58]-عبدالصمد عبد القادر عبد الصمد، رحلات الحج عبر فزان والطرق التي سلكتها بين القرن السادس والحادي عشر الهجريين(12-17م)، مجلة جامعة سبها للعلوم الإنسانية،م13،ع2014،1،ص81.

[59] - بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص43.

[60]- الإدريسي، نزهة المشتاق،م1،ص312.

[61]- طريح، عبد العزيز شرف، جغرافية ليبيا،ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1971،ص64.

[62]- البكري، المسالك والممالك،م2، ص184.

[63]- بن بهون، رحلة الوارجلاني،ص43.

[64]- ابن مليح، أبو عبد الله محمد بن أحمد،أ نس السارب في أقطار المغارب إلى منتهي الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق: محمد الفاسي، منشورات وزارة الدولة، فاس،1968، ص35.

[65]- جالو: واحة من واحات إقليم برقة، تقع شرق أوجلة بـ 30كم، وبها نخيل كثير، ,لأهلها تجارة مع بلاد السودان. الزاوي، معجم البلدان الليبية،ص86.

[93]- ابن حوقل، صورة الأرض،ص61.

[94]- الحفيد، ابن عبد ربه(لمؤلف مراكشى من أهل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد، 1985،ص33.

[95]- تيري، تاريخ الصحراء الليبية، ص566.

[96]-الزاوي، معجم البلدان الليبية،ص146.

[97]-نفسه،ص130.

[98]- بن بهون، رحلة الوارجلاني، ص67.

قائمة المصادروالمراجع

ابن حزم، أبو محمد بن علي بن سعيد الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن بن عميرة، دار الجيل، بيروت، د.ت

ابن حوقل، أبو القاسم بن محمد ،صورة الأرض،م1،دار صادر، بيروت،(د.ت)

ابن غلبون، أبى عبدالله محمد بن خليل التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، عنى بتصحيحه الطاهر أحمد الزاوى، المدار الإسلامي، بيروت

الإدريسي، أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق،م1،مكتبة الثقافة الدينية

الباروني، أبو الربيع سليمان، مختصر تاريخ الإباضية، منشورات تاوالت، د.ت

البغدادي، أبو منصور عبد القادر بن طاهر بن محمد البغدادي، الفرق بين الفرق، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشب، مكتبة ابن سينا القاهرة،= =د.ت.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، المسالك والممالك،م2،ط1، تحقيق: جمال طلبة، منشورات محمد علي بيضون، ودار الكتب العلمية،2003.

البكري، معجم ما استعجم،ج4،لجنة التأليف والنشر،1945

جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

حفناوي بعلى، الرحلات الحجازية المغاربية(المغاربة الأعلام في البلد الحرام، دراسة نقدية)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2018.

الدرجيني، أبي العباس أحمد بن سعيد، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاّي، دار البعثة، قسطنطينة،ج2، ط1، 1970.

رحلات إباضية، رحلة الوارجلاني، تحقيق: يحيى بلهون حاج أحمد،ط1، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع،الجزائر،2011

الزركلى، خير الدين، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)،ج،ط5، دار العلم للملايين،بيروت،1980.

ضيف، شوقي، الرحلات، دار المعارف،ط4،القاهرة،د.ت

قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب،ط2، القاهرة،2002.

مجموعة من الباحثين، الأعمال التمهيدية لموسوعة الفقه الإباضي ((كتاب العدل والأنصاف في معرفة أصول الفقه والاختلاف))، المصطلحات ورؤوس المسائل،سلطنةعمان،ط2011،1.

مجموعة من الباحثين، معجم علماء الإباضية،ج1991،4

محمد سليمان أيوب، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى 1911 ميلادية، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب،(د.ت)

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان،ج4،دارصادر،بيروت

اليعقوبي، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب العباسي تاريخ البلدان ، دار صادر، بيروت،(د.ت)